تألّق الجزائر العثمانيّة من خلال نصوص الأشعار الشعبيّة
-قصيدة غزوة مزغران وليلة الهجوم للشاعر سيدي الأخضر بن خلوف نموذجا-

The brilliance of Ottoman Algeria througth the texts of popular poems
-gazouat Mazagran and leilat elhoujoum model-

د. نبيلة بلعبدي*

جامعة حسيبة بن بوعلي- الشّلف (الجزائر)، n_belabdi@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2022/01/26 تاريخ القبول 2022/02/07 تاريخ النشر 2022/03/31

ملخص:

نود من خلال هذه الورقة البحثية أن نكشف جانبا خفيا من تاريخ الجزائر العثمانية من منظور الشعر والشعراء الشعبيين، ومدى الازدهار والتطور والانسجام الذي كان بين الجزائريين والأتراك، وازدهار البحرية الجزائرية العثمانية لمدة ثلاثة قرون وصدها للهجمات التي تعرضت لها السواحل الجزائرية ببسالة وشجاعة وقوة وهيبة. هذه الأحداث لم تكن لتخفى على الشعراء الشعبيين ليسجلوها وتصبح حينئذ قصائدهم وثائق تاريخية هامة تشهد على قوة البحرية الجزائرية العثمانية ضد العدو من أجل مصلحة الجزائر وسيادتها، ومن بين هؤلاء الشعراء الشاعر الشعبي المتصوف "سيدي لخضر بن خلوف" وشخصيته المحبة للوطن ونصرته، وعلاقته الراقية الطيبة مع الإدارة العثمانية ، والمكانة التي خُص بها نظرا لعلمه وحكمته وتدينه فكان شعره الشعبي صادقا معبرا عن الوجدان في حالة الفرح وفي حالة الحزن ، فجاءت أشعاره مصورة للأحداث راسمة لنا لوحات حربية بحرية تقهر الغزاة بخبرتها وكله رضا عن يد العون الممدودة من قبل الأتراك الى الجزائر وشعبها.

الكلمات المفتاحية: الجزائر؛ العثمانية؛ لخضر بن خلوف؛ خير الدين؛ غزوة؛ شعر شعبي.

Abstract:

This work reveals the hidden aspects of the Ottoman's history in Algeria through popular poems and poets. This period was marked by a great harmony between Algerians and Turks. The prosperity of the navy for three centuries repelled remarkably the Algerian coasts from the Crusader's attacks. Lakhdar Benkhlouf was a poet from this period. He accurately described the planning of Algerian and Turkish armies to repel external attacks. In his poems, he gave us a wonderful picture of the period he lived under the Ottoman's authority, praising its leaders Arroudj and Kheireddine.

Keywords: Algeria; Ottomans; Lakhdar Benkhlouf; kheireddine; invasion; popular poems**.**

وقبل البدء في الحديث عن قوة الجزائر العثمانية نتحدث أولا عن الظروف المختلفة المميزة لعصر الشاعر سيدي لخضر بن خلوف الذي عاش "في القرن التاسع هجري أي في أوائل الحكم التركي"[1] وبالضبط في القرنين الثامن والتاسع هجري الموافق للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي في هذه الفترة كانت الجزائر تابعة

* المؤلف المرسل

للإدارة العثمانية من القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر ميلادي ما يزيد عن ثلاثة قرون، وفي النصف الثاني من القرن السادس قسمت الإيالة الجزائرية إلى أربعة أقاليم إدارية أو بايلكات وهي على التوالي:

1. دار السلطان: تمتد من دلس شرقا إلى شرشال غربا ومن ساحل البحر شمالا إلى سفوح الأطلس البليدي جنوبا.
2. بايلك الشرق: كان مركزه قسنطينة.
3. بايلك الغرب: وقد استقر مركزه بوهران بعد انتقاله إلى مازونة ثم معسكر.
4. بايلك التيطري: ومركزه المدية وتعتبر أصغر البيلكات وأفقرها وأكثرها ارتباطا بالسلطة المركزية[2].

وأما عن بايلك الغرب الذي عاش فيه شاعرنا الشعبي سيدي لخضر بن خلوف فعاصمته لم تكن مستقرة بمكان واحد فقد كانت مازونة في البداية عاصمة له من 1563 إلى 1700م ثم تحولت إلى معسكر سنة 1701، ثم إلى وهران سنة 1708م، ثم مستغانم سنة 1732م، بعد ذلك عاد المقر إلى معسكر ثانية سنة 1737م، بعد الفتح الثاني سنة 1792م[3].

عرف بايلك الغرب في أواخر القرن الخامس عشر فتنا واضطرابات وتحرشات صليبية غازية على الشمال الإفريقي عامة وإثر ضعف دولة الحفصيين بتونس، ودولة بني عبد الواد بتلمسان "كانت دولة إسبانيا قد تنمرت ولما تزل دماء شهداء الأندلس عالقة بأدرانها ورمت أنظار الطمع والجشع على الشمال الإفريقي فكادت تثبت أقدام المسيحية المتعصبة الفتاكة بهذه الأقطار، لولا أن الله نظر إلى مسلمي الشمال الإفريقي نظرة رحمة وهو الرؤوف الرحيم، فمن عليهم بالحادثين الجليلين في ذلك العصر الحالك السواد: حادث المجاهدين بربروس خير الدين فأنقذ تونس والجزائر، وحادث ظهور الأشراف السعديين الشامخة ببلاد المغرب الأقصى، فكان هذان الحادثان سببا في إنقاذ البلاد المغربية وحفظ كيانها وسلامة دينها وراحة سكانها"[4].

ولقد عرف الجزائريون حجم الخطر المحدق بهم، فاستنجدوا بحكومة الدولة العثمانية التي كانت بمثابة أقوى الإمبراطوريات، فاستجاب العثمانيون لنداء النجدة وسارعوا إلى حماية المسلمين، والدفاع عن شرفهم ومجدهم ودينهم وبقيادة البطلين بابا عروج وخير الدين بربروس، وفي مطلع القرن السادس عشر قسمت الجزائر إلى البايلكات المذكورة آنفا، وجعل الباي ابن خديجة على رأس بايلك الغرب وعاصمته مازونة.

في سنة 1732م قام الإسبان بتنفيذ هجومهم على المنطقة إبان تولي حكم الباي مصطفى بوشلاغم، إذا استولى الإسبان على وهران، ففر الباي إلى مستغانم وكانت محاولاته لتحرير وهران كلها فاشلة إلى أن توفي سنة 1737م ودفن بمدينة مستغانم، خلفه ابنه يوسف بن مصطفى بوشلاغم الذي أعاد الحكم إلى معسكر[5].

عرف العصر الذي عايشه سيدي لخضر بن خلوف اضطرابات سياسية داخلية وغزوات خارجية من إسبانيا وحليفاتها، ولا توجد معلومات تحدد مولد الشاعر بتاريخ مضبوط، والمعلوم عنه أنه ولد في أوائل الحكم العثماني بالجزائر، أي أواخر القرن الثامن الهجري حيث يقول الشاعر.

مـــن قـــرن الثمانيـــة أديـــت ســـنين أوزايـــغ والأيـــام هاملـــة و الجالـــب مجلـــوب
بفضـــل النـــبي تميـــت القـــرن التاســـع والفلـــك ينثـــنى والحاســـب محســـوب[6]

ثم يضيف قائلا:

جـــوزت ميـــه وخمســـة وعشـــرين حســـاب وتميـــت مـــن ورا ســـني ســـتة شـــهور
منهـــا مشـــات أربعـــين مثـــل الســـراب والي بقـــى مشـــى في مـــدح المـــبرور[7]

عايش الشاعر غزو جيوش الدولة الإسبانية على وطنه بغرض طمس شخصية وهوية شعبه ونهب خيرات بلده، وإفساد كل ما هو جميل، إلا أن حب الشاعر لوطنه وغيرته عليه جعلته يثور ضد هذا الاحتلال ولو كلفه تقديم حياته قربانا له.

تتوالى الغزوات على هذا الوطن، وفي الوقت نفسه يكبر الشاعر ويشتد عوده ويتشبع بتعاليم الدين الإسلامي فهو الإمام الخطيب الصوفي قوي الحجة والشخصية الفارس المغوار، قوي الإرادة والعزيمة على تحدي الأهوال والصعاب، ومن بين المهام التي أُسندت له من قبل الإدارة التركية وقام بها هي: جمع الجيوش، وتوحيد القبائل المتناحرة تحت لواء الجهاد ،لينقض كالنسر الكاسر على أعداء الدين والوطن، فكان النصر حليفه وأشهر هذه المعارك معركة مزغران التي حقق فيها نصرا كبيرا يقول الشاعر:

يـــا فـــارس مـــن ثم جيـــت اليـــوم غـــــزوة مزغـــــران معلومـــــة
يـــــاعجلان ريـــــض الملجـــــوم رايـــت جنـــاب الشـــلو موشـــومة
ياســـايلني عـــن طـــراد الـــروم قصـــــة مزغـــــران معلومـــــة[8]

وتجدر الإشارة أن المعركة قد بدأت من الجزائر العاصمة حتى منطقة مستغانم، ويبدو أن الشاعر قد استعد لها بعمل جبار وعظيم وهو لم شمل جميع القبائل والعروش وقد جاء مفصلا في قصيدة "يا لله سلكنا في ليلة الهجوم" إذ يقول فيها:

باشـــا خيـــال كنـــت نهـــاتي مـــن العـــرب في حكـــم خـــير الـــدين العـــادل الأصـــيل
راكـــب علـــى فرســـي نســـوق الأشـــهب هنـــا وغـــادي بقـــر بصـــو لـــو يميـــل
إذا نعـــبر ســـيفي مـــن شـــافني رهـــب والأتـــراك تهـــاتي بي في كـــل جيـــل
والخلـــوفي ينـــده ويســـايس في الأبطـــال والعـــرب بالنســـجاق والقـــوم غازيـــة

قضى الشاعر أيام شبابه في منطقة مزغران مع عائلته وأهله ينعمون بالخضرة والماء والأمان، ولكن هذا الوضع الهادئ الجميل لم يدم، حيث استفاق ذات يوم ليرى أسطول الجيش الإسباني يريد سلب أرض الشاعر

والاستيطان فيه، فسارع لرفع راية الجهاد ليشهد له أنه كان الشاعر المجاهد المنتصر على الغزاة بفضل قوة إيمانه وإرادته.

وقد وصف الشاعر المعركة وسماها "غزوة" لأنها جاءت واصفة لكل تفاصيل المعركة وصفا دقيقا، ولأنها كانت بين قوى الخير ممثله في جيوش المسلمين وقوى الشر ممثلة في جيوش الكفار الذين لُقنوا درسا لن ينسوه أبدا وسيبقى وصمة عار في جبينهم لن تمحى على مر العصور والمراد من تدوين المعركة هو "عظة للأجيال، معركة كانت بالفعل أفجع هزيمة عرفها الجيش الإسباني في تاريخه للاحتلال فأصبحت وثيقة تاريخية هامة لأبطالنا الكرام"[9].

هي فعلا وثيقة تاريخية هامة قد يلجأ إليها المؤرخون دون التشكيك في صحتها، فقد صورت الأحداث والوقائع والشخصيات المحاربة من كلا الجانبين وهي بالفعل مفخرة أهل مستغانم، ومثال حي في سبيل تحقيق المجد والغز والحرية، وكان مفتخرا متباهيا بمكانته التي خُص بها من قبل الأتراك فقد كان برتبة "باشا" فقال "باشا خيال" ، ويبدي رضاه وسعادته فيشهد أن خير الدين أصيل وحكمه عادل بقوله "في حكم خير الدين العادل الأصيل" فمن خلال قصيدة قصة مزغران تبين لنا مدى حب الشاعر لوطنه وتمسكه بأرضه وكيانه رافضا المحتل الأجنبي، وقد أسهم بعفويته في تقوية معنويات الشعب ودعوتهم على الجهاد، وكثيرا ما يسبق الشعر الشعبي وفي هذا المجال الشعر الفصيح يقول عبد الملك مرتاض: "لقد استطاع شعراء الملحون (أي شعراء العامية) أن يواكبوا الحياة على اختلاف ألوانها، فيرسموا صورا دقيقة، صادقة، واضحة، حية فإذا أشعارهم كالآلة المسجلة التي لا تخطئ ولا تكذب، تخرج الصوت كما سمعته او كالآلة المصورة التي لا تنافق ولا تماري، إن هذا التراث لا يقل أهمية وجمالا عن تراثنا الأدبي الفصيح فكلاهما صور حياتنا الاجتماعية عبر عن عواطفنا المتعجمة، ورسم آمالنا الخافقة وسجل آلامنا المبرحة"[10].

وهذه بعض المقتطفات تبين مشاركة الشاعر في المعركة الخالدة بالسيف والقلم، وفي الوقت ذاته تبرز شهامته وحماسته التي يغذيها عشقه الكبير لله وللوطن فيقول:

يـــا ســـايلني كيـــف ذا القصـــة	بـــين النصـــراني وخـــير الـــدين
اركـــب فـــارس اســـبق ودنـــا	بـــالتعريف يبشـــر الســـلطان
اســـتعد الســـلطان بالحركـــة	صـــار الغيـــب الحـــق ونـــزل
في أمـــره جـــات العـــرب طمـــوم	ســـلطان عـــادل طاعتـــه الأمـــة
الخيمـــة للـــترك غـــير النجـــوم	والخيـــام مـــن الجـــز مقيومـــة

حلـــــف لهـــــم ســـــلطاننا وثبـــــت أخـــــذ الثـــــأر ورجـــــع بالأمـــــان

ذي الأتـــــــراك مجنـــــــدة للـــــــروم فزعـــــت الكفـــــار يـــــا فاهمـــــة

الأمـــــير حســـــن يـــــوم مزغـــــران أخلـــــف الثـــــأر مـــــن العـــــدو تحقيـــــق

يـــــرحم ناســـــه مـــــن خيـــــار القـــــوم خـــــير الـــــدين وســـــيلة الرحمـــــة

صور لنا الشاعر من خلال هذه الأبيات العلاقة الحميمية التي كانت بين الشعب الجزائري والجيش العثماني، والعلاقة الطيبة التي كانت بين الحكام الأتراك والشعب العامة من الناس، حي أسهم الدين الإسلامي المشترك بينهم في تبادل الاحترام والتقدير والمودة وتآلف الثقافتين ، وموقف الجزائريين المسالم باعتبار أن العنصر الوافد مسلم جاء لإنقاذ السكان من خطر الإسبان الغازي الذي كان يهدد الوطن بعد استنجاد الجزائريين بهم، ولم ينظر الشعب الجزائري إليهم نظرة عنصرية ، أو كأجانب جاءوا لاستغلال خيرات البلاد، بل كحماة للإسلام والمسلمين وحفاظا على الثقافة الإسلامية والعربية.

والملاحظ أن الأخضر بن خلوف يذكر السلطان خير الدين بصفات حسنة طيبة فهو العادل الأصيل وسيلة الرحمة، وكان يدعو له بالغفران والرحمة ، ولقد كانت الأتراك تفتخر بالشاعر لأنه قام بمهمة تصعب حتى على الأمراء والسلاطين، فقد كان قائدا مكلفا بمهمة صعبة وهي جمع القبائل والعشائر وتحفيزهم على الجهاد تحت راية الإسلام، وهذا ما يعنيه الشطر الثاني من البيت الثالث، وهذا يعني أن المناصب السياسية لم تكن حكرا على الإدارة العثمانية فحسب بل أُسندت أيضا إلى الجزائريين، وهذا ما يدل عليه سياق القول: باشا خيال، الأتراك تهاتي بي.

من جهة أخرى سجل الشاعر ما قام به منذ بداية المعركة في قصيدة تعتبر هي الأخرى وثيقة تاريخية صادقة تشهد على بطولة الشاعر، ووطنيتها اللامتناهية، وهي قصيدة بعنوان (يا لله سلكني في ليلة الهجوم) وهي قصيدة غير واردة في الديوان، وإنما جمعها الأستاذ عبد القادر جلول دواجي إثر مقابلته لخضاري الحاج مروان في 28 – 04 – 2002 يقول الشاعر:

يستهل الشاعر قصيدته البطولية بذم الدنيا الفانية ، والتي أمضاها في عبادة الخالق استعدادا للقائه وطمعا في ثوابه، بعد ذلك يسرد أنه كان أحد الباشوات في الجيش العثماني في حكم خير الدين بربروس دعا إلى الجهاد في سبيل الوطن بداية من الجزائر العاصمة من مقام الولي الصالح والعالم الشهير سيدي عبد الرحمن الثعالبي ويرسم لنا الطريق الذي مر به داعيا ومرغبا الأهالي في الجهاد والاستشهاد ثم يصل إلى شرشال إذ تأتيه الجيوش من كل مكان محملة بالذخيرة والعتاد والسلاح وعددهم بالآلاف، وصولاً بالبليدة ومنها على الأصنام (الشلف حاليا) فوجد أهلها متحمسين لإعلاء كلمة الحق حتى وصل عدد الجيش عشرون ألفا لأن الشاعر رغبهم في الجهاد في سبيل الله والوطن، ومنها على سيدي عابد حيث يوجد مقام سيدي بو عبد الله، وفجأة يأتيهم خبر كالصاعقة

وهو أن الجيش الإسباني وصل منطقة مستغانم، فازداد الجيش المسلم حماسًا وإدارة في تلقين الإسبان درسًا يسجله التاريخ لصالحهم.

وحينما وصلوا ووجدوا الإسبان بعدتهم الحربية القوية والضخمة، حاصرهم المجاهدون واشتغل قبيل المعركة بين قوات العدو حامل الصليب وكلهم عزم على طمس ثقافة المسلمين الجزائريين، وبين المجاهدين الجزائريين والأتراك في وطنهم لا حول لهم ولا قوة سوى العزيمة الفولاذية، وإخلاص الجهاد لله وحده والدين والوطن، وبما أن الشاعر كان فارسا قائدا(باشا خيال)، فواجب على الجميع احترامه وطاعته والاقتداء بأوامره ونواهيه ، حتى صار مثالا وقدوة عند الأتراك حيث يقول:

إذا نعـــبر بســـيفي مـــن شـــافني رهـــب والأتـــــراك تهـــــاتي بي في كـــــل جيـــــل

ويصف الأتراك بالأبطال الذين لا يخشون الحرب والجهاد والشهادة التي تقودهم إلى الجنة أين السعادة الأبدية قائلا:

والأبطـــال مـــن الأتـــراك عنـــدي مجـــردة مـــــن تـــــوفى مســـــلم يوابـــــد النعـــــوم

فما كان على الإسبان مع الحصار الشديد سوى الهروب من إحدى الفجوات فكانت حقا أشهر وأعظم انتصار للوطن والإسلام والمسلمين تؤكد على قوة البحرية الجزائرية العثمانية وأبشع هزيمة تلقاها الإسبان في تاريخ احتلاله وغزوه.

تعتبر القصيدة من الشواهد التي ضمنها الشاعر أوصافا ومعلومات وأخبارا لها فائدة قيمة للغاية "ولا سيما وأن المؤرخين الاسبان تآمروا السكوت عن هزيمتهم بمزغران"[11].

والشاعر ابن خلوف أرَّخَ الواقعة بكل تفاصيلها ودقائقها، حتى أنه كان يوظف مفرداتهم عن إجابته للغة الإسبانية وثقافته وتجوله ومنها (سبنيول–ألبيتشو–مادريميا– جوان – خوان –شيكة–الخينتي–سطموريوا ... إلخ)، وقد وصف حالة الغزاة بالحال التي يرثى لها وشبه معركة مزغران بالغزوة التي يؤكد فيها "على التواصل بين جهاد الصحابة وجهاد الجزائريين المسلمين المخلصين لدينهم ووطنهم من أجل تعزيز الروح الإسلامية الأصيلة التي طبعت رؤية الجهاد بطابع إسلامي أصيل"[12].

فالشاعر لم يكن بمعزل عن أحداث وطنه ووقائعه، بل كان يعيشها ويشارك في الحملات العسكرية للجيش العثماني ضد العدو الإسباني ذودا عن الكرامة والشرف والوطن، فقام بمهام صعبة حتى على القيادة العسكرية آنذاك وهي جمع القبائل والعشائر وتحفيزهم على الجهاد خصوصًا وانه صاحب حكمة ورجاحة عقل فجمع الأمة باسم الوطنية وتحت راية الإسلام[13].

هكذا لمسنا جانب من جوانب شخصية سيدي لخضر خلوف المحب لوطنه ولبلدته وموقفه في نصرة الحق على الباطل، والوطنية جزء لا يتجزأ من شخصية الجزائري المحب لبلده ودينه توارثتها الأجيال وما أكثر الشعراء

الشعبيون الذين وصفوا الثورات في مناطقهم وأقاليمهم إبان فترة الاستعمار الفرنسي "فالشاعر الشعبي تسيطر على رؤيته للأحداث نظرة إقليمية ترتبط بواقع الحياة التي يعيشها وليست الحياة التي يتصورها"[14]

نستنتج من خلال القصدتين أنهما بمثابة الوثيقة التاريخية الفريدة الشهيرة من نوعها، مزجت بين السيرة والملحمة في حفظ أحداث المعركة الشهيرة التي وقعت أحداثها يوم 23 أوت 1558 حيث إذ لمسنا واقعا أساسيا تكشف عن غزو استعماري متطاول همجي، تمت مواجهته ببسالة، وكذلك رأينا الأقوام الذين صمدوا في وجه الغزاة وسلاحهم هو وطنيتهم والافتخار بوطنهم والانتماء إليه، كما شهد شهادة حق للتاريخ وللأجيال أن الجزائر العثمانية كانت متألقة بجيوشها وإدارتها ونصرتها للدين والحق وصلاح حكامها، فكانت تعيش الجزائر في كنف الدولة العثمانية التي احتضنتها احتضان الأم لوليدها فصدت عنه كل أذى خارجي.

الهوامش:

[1] عبد الحميد حاجيات، (ما يقال عندي) لأخضر بن خلوف، مجلة آمال، عدد 68، ط2، 1969، وزارة الثقافة والاتصال، الجزائر، ص 43.

[2] ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 – 1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 23 وما بعدها.

[3] انظر: فتيحة لواليش، الحياة الحضرية لبايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، اشراف بلحميسي مولاي، جامعة الجزائر، 1993 – 1994، ص 17.

[4] أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766 – 1791)، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 21 وما بعدها.

[5] أنظر: فتيحة لواليش، مرجع سابق، ص 23.

[6] محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، ديوان سيدي الأخضر بن خلوف، شاعر الدين والوطن، مطبعة الشمال الافريقي، الرباط، 1958، ص 187.

[7] المرجع نفسه، ص 193.

[8] المرجع نفسه، ص 182.

[9] عبد القادر بن عيسى المستغانمي، مستغانم وأحوازها عبر العصور، تاريخيا وثقافيا وفنيا، المطبعة العلاوية، ط1، مستغانم، 1996، ص 39.

[10] نور سلمان، الادب في رحاب الرفض والتحرر، دار العلم للملايين، ط1 بيروت، 1981، ص 192.

[11] بلحميسي مولاي، قصة مزغران، مجلة آمال، عدد 68 – 1968 – ص 65.

[12] التلي بن شيخ، منطلقات التفكير في الادب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 81.

[13] انظر: عبد القادر جلول دواجي، الخطاب الشعري عند سيدي الأخضر بن خلوف، رسالة ماجستير، إشراف: محمد سعيدي، جامعة تلمسان 2003/2002، من ص 104 – 107.

[14] التلي بن شيخ، دراسات في الادب الشعبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 85.